المدرسة الأشـعرية في الجـزائر ومساهمتها الحضارية

-الإمام العقباني نموذجا-

محمد عبد اللطيف شافعي

طالب دكتوراه جامعة الجزائر 1

moha350@gmail.com

د. عبد الغني عكاك

جامعة الجزائر 1

abdelghani_akak@yahoo.com

تاريخ الوصول: 2018/08/29 / القبول:2019/01/02/ النشر على الخط:2019/01/05

Received: ……………… / Accepted: ……….. / Published online: …….

ملخص:

لقد قامت الأشعرية على أساس متين من التّوسط والاعتدال، الأمر الذي مكّنها من تجاوز إشكالية التّوفيق بين العقل والنقل، والجمع بين أصول ومقاصد الشّريعة، وهاته الوسطية هي التي أعطت القبول والشّرعية لمذهب الأشعري عند عموم الأمة، ومن ذلك مسلمي الغرب الإسلامي الذين تبنوا مذهب أبي الحسن، ولم يكن دفاعهم عن الأشعرية وانتصارهم لها وتقريرهم لمقالاتها، مجرد حميَّة أو تكرار لما دَوَنه أشاعرة المشرق، بل بصمتهم واضحة في تناول القضايا الكلامية، والمقال الذي بين أيدينا يعرض المساهمة الحضارية لعَلم من أعلام الجزائر، وهو الإمام العقباني، بطريقة وصفية تحليلية، للخلوص إلى أهم الإضافات التي قدمها للمدرسة الأشعرية المغاربية عموما، والجزائرية خصوصا.

الكلمات المفتاحية: العقباني، علم الكلام، الأشعرية، الحضارة، الجزائر، التوحيد.

Al - Asharya School in Algeria and its Civilization contribution Imam al-Aqbani as a model

Summary:

Asharism had rising on a strong basic of moderation and modesty, the thing that enabled it to pass the problem of the accommodation between mind and transfer, and the gathering between origins and purposes of religious law, and this moderation is the one who gave the approval and the validity to the Ashari doctrine at all islamic people, and between them (islamic people) the muslims of the islamic west whom adopted the doctrine of Abi Elhassan, and their defend on asharism and taking victory for it and validating their articles were not just a zeal or just a repeat to what those of asharism east wrote, but their mark was so clear in taking the doctrine cases, and the article that between our hands shows the civilised contribution of one of the algerian characters, he is the imam Elokbani, in an analytic descriptif way, to conclure the most important additions that he gave to the Maghreb asharism school in general, and the algerian Asharism school especially.

key words : Elokbani, the doctrine, asharism, the civilisation, Algeria.

مجلة المعيار ISSN :2588-2384
المجلّد 23 عدد: 45 السنة: 2019

مقدمة:

إن دراسة تطور الفكر العقدي بالجزائر يستلزم منّا نفض الغبار عن مؤلفات وإسهامات أعلام العقيدة والكلام في وطننا الحبيب، والكشف عن جوانب حياتهم العلمية، وتتبع أخبارهم، ومعرفة السّياقات التّاريخية والحضارية التي عايشوها، من خلال ما وصلنا من كتب التّاريخ والتّراجم والرّحلات والنّوازل، وتركيز الدّراسة حول المادة الكلامية والتّراث العقدي الذي تركوه لنا، مخطوطا كان أو مطبوعا، ومعرفة جوانب تأثُّرِهم وتأثيرهم في تطور الفكر العقدي، ومن هذه المنطلقات جاءت هاته الدّراسة، عن عَلَم من أعلام الجزائر، وهو الإمام أبو عثمان سعيد بن محمد العقباني، للتّعرف أولا على سيرته ومسيرته العلمية، ومعرفة مصنفاته ومساهماته، ثمّ استخلاص منهجه في درس العقيدة، من خلال بيان وتوضيح موقعه في الخريطة العقدية للغرب الإسلامي، ومنهجه في التّأليف، ومسالكه في الاستدلال على قضايا العقيدة، وطبيعة المعرفة العقدية عنده.

أولا:ترجـمة الإمـام العقبـاني

1/ عصر العقباني وترجمته

الإمام، القاضي، أبو عثمان، سعيد بن محمد بن محمد بن محمد، العقباني، التّلمساني، التّجيبي، والعقباني نسبة لعقبان[1]، وهي قرية بالأندلس، وقيل: عقاب[2]، أصله منها، تجيبي النّسب، وُلد بتلمسان سنة 720هـ، ونشأ بها، ولا تُسْعفنا المصادر التي ترجمت له بالوقوف على ظروف نشأته، إلا أنّنا نعلم أنّ الإمام العقباني نشأ في ظلّ الدّولة المرينية، التي كان منها سلاطين اعتنوا عناية جيّدة بالعلوم الشرعية، فعاصر السّلطان أبي عنان المريني، وروى عنه صحيح البخاري والمدونة عن عز الدّين بن جماعة وغيره[3]، وتولى قضاء الجماعة ببجاية في زمانه أيضا، والعلماء يومئذ متوافرون[4]، وتولى القضاء بغير بجاية، فتولى قضاء تلمسان وسلا ومراكش ووهران، حتى قال عنه الحفيد بن مرزوق: كان علاّمة خاتمة قضاة العدل بتلمسان[5]، وطالت مدته في ولاية القضاء فقد زادت على أربعين سنة[6]، وكانت أغلبها بتلمسان معقل دولة بني زيان،

1-البستان في ذكر الأولياء والعلماء في تلمسان، أبي عبد الله محمد بن محمد الملقب بابن أبي مريم التّلمساني، ص107، النّاشر: المطبعة الثعالبية، 1908م.

2-شجرة النّور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف، 361/1، ت: عبد المجيد خيالي، النّاشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطّبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م.

3-البستان، بن أبي مريم، ص107، وانظر: ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي أشي، أبو جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، ت:عبد الله العمراني، ص269، النّاشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت/ لبنان، الطّبعة: الطبعة الأولى، 1403هـ.

4-الدّيباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري، 394/1، ت: محمد الأحمدي أبو النّور، النّاشر: دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.

5-كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدّيباج، أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التكروري التنبكتي السوداني، أبو العباس، 216/1، ت: محمد مطيع، النّاشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، 2000م.

6-الدّيباج، ابن فرحون، 394/1.

وقد تميّز عصره باضطراب سياسي، فقد تعاقب كثير من الأمراء على تلمسان في تلك الفترة، وتعرضت لغارات وحصار عنيف من المرينيين، ومع هذا كانت الحركة الثّقافية والعلمية مزدهرة، اعتنى العلماء خلالها الفترة بمؤلفات الغزالي، كالاقتصاد في الاعتقاد، وكتاب الإرشاد، للجويني، وفي المنطق، جمل الخونجي، مع أنّ ميزة التأليف التي كانت تطبع عصر العقباني، هي الشّروح والحواشي والمختصرات[1]، إلا أنّه استطاع أن يتميز بمُؤلفاته، فقد شهدت نصوص معاصريه برفعة قدر الإمام العقباني وامتلأت كتب التراجم بالثّناء عليه، فوصفه تلميذه شيخ الإسلام ابن مرزوق الحفيد بأنّه: وحيد دهره وفريد عصره، بقية العلماء الرّاسخين، ووارث الفضلاء المجتهدين[2]، وقال عنه معاصره ابن فرحون: إمام عالم فاضل فقيه مذهب مالك متفنن في العلوم[3]، وفي البستان: سمعت بعض الشيوخ يحكي عمّن لقيه أنّه كان يقال له رئيس العلماء والعقلاء[4]،وقال عنه المجاري: فمنهم من أخذت عنه بتلمسان وهو الإمام المحقق وحيد أهل زمانه في المعقول وقدوتهم في المنقول أبو عثمان بن محمد بن محمد العقباني[5]، وكانت وفاته –رحمه الله– عام أحد عشر وثمانمائة[6]، رحمه الله تعالى تعالى رحمة واسعة، وأدخله فسيح جنانه.

2/ مسيرة العقباني العلمية

أخذ الإمام سعيد العقباني العلم عن أبرز مشايخ عصره، فرسخت قدمه في العلوم العقلية والنّقلية، وبلغت رتبته في تحقيق العلوم الشرعية رتبة أعلم أهل عصره بالغرب الإسلامي، كالإمام ابن عرفة والشريف التّلمساني، والمقري، قال التّنبكتي تعليقا على كلام ابن ظهيرة في شيخه بن عرفة: قلت: قوله: ولم يكن بالغرب من يجري مجراه!... الخ، يعني واللّه أعلم، بالنّسبة لآخر عمره أو ببلاده إفريقيا فقط، وإلا فقد كان بالمغرب الأوسط والأقصى والأندلس من هو مثله ومن لا يتقاصر عن رتبته فيما ذكر من جمعه وتحقيقه، فهذا الإمام الشّريف التّلمساني والإمام المقري والقاضي أبو عثمان العقباني في تلمسان، وشيخ الشّيوخ أبو سعيد بن لب والإمام النّظاري أبو إسحاق الشّاطبي بغرناطة والإمام القباب بفاس، فهؤلاء أمثاله في علومه بلا شك[7]، وهذه لا شك شهادة عظيمة للإمام العقباني، تدل على علو رتبته في العلم، وهذه الرّتبة لم تأت من فراغ، فقد ترك مشايخه بصمتهم على توجهه في التّأليف والتّخصص، سيما في علم الفرائض الذي أتقنه على السّطي فصنف شرحه المتميز على الحُوفية، ولتمكنه الكبير في الفرائض كان من الصعب الدّراسة عليه مباشرة، لأنّه

1-الإمام السنوسي وعلم التوحيد، جمال الدين بوقلي، ص47-51، المؤسسة الوطنية للكتب، الجزائر، 1985م.

2-مقدمة كتاب نهاية الأمل في شرح الجمل، ابن مرزوق الحفيد، ق3/أ، مخطوط، رقم 517، دار الكتب الوطنية، تونس.

3-الديباج،ابن فرحون، 394/1.

4-البستان، بن أبي مريم، ص107.

5-برنامج المجاري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن عبد الواحد المجاري الأندلسي، ص129، ت: محمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي - بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى، 1982م/ 1400م.

6-وفيات الونشريسي، أحمد بن يحيى الونشريسي، ص82، ت: محمد بن يوسف القاضي ، شركة نوابغ الفكر.

7-نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التكروري التنبكتي السوداني، أبو العباس، 469/1، ت: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس – ليبيا، الطبعة: الثانية، 2000 م.

بالتعبير المعاصر أصبح مختصا بتدريس طلبة الدراسات العليا[1]، وتبحر أيضا في علم الهندسة قال المجاري حكاية عن شيخه العقباني: قال وكان رفيقي السّيد أبا عبد الله الشّريف التّلمساني، وكان شيخنا السَّطي لم يشتغل بالهندسة إلا قليلا، فكان يسألنا عن براهين بعض المسائل ومن أيّ شكل تخرج من أوقليدس، فكان رفيقي أبو عبد الله الشّريف يسبقني تارة وأسبقه أخرى، وفي بعض السّؤالات أنطق أنا وهو بالجواب في وقت واحد، وهذا الكلام منه يشعر بتبحره في علم الهندسة ولقد كان بحرا فيها[2]، وهذه القصة تبين قوة العقباني في العلوم العقلية، النّظرية والتّطبيقية، وأنّه كان –رحمه الله– يتميّز بذكاء حاد، تشهد به مصنفاته التي تركها، وفيما يلي بعض من أخذ العقباني عنهم العلوم:

1/ **محمد السَّطي**: الفقيه حافظ المغرب العلّامة الفرضي الجليل، اشتغل كثيرا بعلم الفرائض، أخذها عن الشّيخ أبي الحسن الطّنجي، ختم عليه الحوفية ثمان ختمات، وكانت له في فهمه وإقرائه وحل عُقدِه اليد الطّولى[3]، تتلمذ عليه وأخذ وأخذ عنه الإمام العقباني، قال المجاري: ومن شيوخه الشّيخ المحقق الفرضي المدقق، أبو عبد الله محمد بن سليمان السّطي، أخبرني أنّه قرأ عليه جميع كتاب الحوفي، قراءة تفقه وتحقيق لأحكامه الفقهية، وتصوير لأعماله الجزائية، وذلك في شهر[4]، شهر[4]، وهذا عجيب منه رحمه الله، فقد استطاع تحصيل مسائل هذا العلم، وقراءتها وتحقيقها وتصورها في ذهنه، في مدة مدة شهر.

2/ **محمد العبدري التّلمساني عُرِف بالآبلي**: الإمام العلامة المجتمع على إمامته، أعلم خلق اللّه بفنون المعقول، قال عن نفسه: قرأت المنطق والأصلين على أبي موسى ابن الإمام، وقال عنه تلميذه المقري: هو الإمام نسيج وحده ورحلة وقته في القيام على الفنون العقلية وإدراكه وصحة نظره[5]،قال ابن فرحون في ترجمة العقباني: وأخذ الأصول عن أبي عبد الله الآبلي[6]، فأخذ عنه الإمام العقباني علوم العقيدة والكلام والمنطق[7].

3/ **أبو زيد ابن الإمام التّنسي التّلمساني**: العالم الرّاسخ والعلم الشّامخ الحافظ النّظار المتحلي بالوقار الشّائع الصّيت شرقاً وغرباً وهو أكبر الأخوين المشهورين بابني الإمام التّنسي، روى عنهما كثير من فضلاء المغرب كالمقري ومحمد

1- جاء في رحلة القلصادي في ترجمة شيخه عيسى الرتيمي: وأخبر –رحمه الله– أنّه لم يَسِر إلى القراءة على سيدي سعيد العقباني إلّا بعد أن قرأ جميع الحوفية على والده ست مرات وحضره مع الغير نحو الثمان عشرة ختمة. رحلة القلصادي، أبي الحسن علي القلصادي الأندلسي، ص98، ت: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978 م.

2- برنامج المجاري، المجاري، ص130.

3-نيل الإبتهاج، التنبكتي، ص408.

4- برنامج المجاري، المجاري، ص130، وقال التّنبكتي: وقال بعض أصحابنا: كان السّطي إمامًا جليلًا حافظًا مقدمًا في الفقه، ... أخذ عنه ابن عرفة والعقباني وابن خلدون. نيل الإبتهاج، التّنبكتي، ص409، وانظر أيضا: كفاية المحتاج، لأحمد بابا التنبكتي، 216/1.

5-نيل الابتهاج ، أحمد بابا التنبكتي، 411/1.

6-الدّيباج، 394/1.

7- قال التّنبكتي: وأخذ عن صاحب الترجمة من لا يعد كثرة من الأئمة، كابن الصّبّاغ المكناسي، والشريف التلمساني، والشرف الرّهوني وابن مرزوق الجد، وأبي عثمان العقباني. كفاية المحتاج، أحمد بابا التنبكتي ، 58/2.

الشريف التّلمساني وابن مرزوق الجد وسعيد العقباني، قال ابن فرحون في ترجمة العقباني: سمع من ابني الإمام أبي زيد وأبي موسى وتفقه بهما[1].

4/ **أبو موسى ابن الإمام التّنسي التّلمساني**: سمع العقباني عليه جميع صحيح البخاري، قال العقباني: سمعت جميعه على الإمام أبي موسى عيسى بن محمد ابن الإمام، المذكور بمدرسته بتلمسان في مجالس آخرها غرة ذي الحجة عام اثنين وأربعين وسبع مائة[2].

5/ **ابن البناء أبو العباس الأزدي**: ذكره المجاري في شيوخ العقباني[3]، وهذا وَهْم منه -رحمه الله- فإنّ ابن البناء كانت وفاته سنة 721هـ، والعقباني مولده سنة 720هـ، ولعلّه قصد روايته عنه، والله أعلم.

6/ **محمَّد بن عبد السلام الهواري التونسي**: قاضي الجماعة بها وعلامتها الشّيخ الفقيه القوَّال بالحق، الحافظ المتبحر في العلوم العقلية والنّقلية، العمدة المحقق المؤلف المدقق، سمع أبا العباس البطرني وأدرك جماعة من الشّيوخ، تخرج بين يديه جماعة منهم القاضي ابن حيدرة وابن عرفة[4]، قال المجاري في ترجمة العقباني: ومن شيوخه الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد السلام التّونسي -رحمه الله-[5].

وبعد هذا التّحصيل الكبير والعميق، لمختلف العلوم الشّرعية، وبلوغ العقباني مرتبة عالية في تحقيقها، صار متوقعا أن يتخرج به ثلّة من العلماء الذين كانوا في زمانه، وفيما يلي ذكر لبعضهم:

1/ **قاسم بن سعيد العقباني التّلمساني**: الإمام أبو الفضل وأبو القاسم، شيخ الإسلام، ومفتي الأنام، الفرد العلامة الحافظ القدوة العارف المجتهد المعمر، ملحق الأحفاد بالأجداد، أخذ عن والده الإمام أبي عثمان وغيره، وحصل العلوم حتى بلغ درجة الاجتهاد، وله اختيارات خارجة عن المذهب[6]، وكان درَّس كتب والده سعيد، ومن ضمنها كتابه في العقيدة الأشعرية، قال القلصادي: وممّا قرأت عليه بلفظي بعض الحوفي، بطريقتي التّصحيح والكسور، وبعض المناسخات من الشّرح لوالده سيدي سعيد، وبعض مختصره في أصول الدين، وغير ذلك[7].

2/ **محمد بن مرزوق الحفيد التّلمساني**: الإمام المشهور العلامة الحجة الحافظ المحقق الكبير، الثّقة الثّبت النَّظار المصنف التَّقي الصالح الزّاهد، أخذ العلم عن جماعة كالسّيد الشّريف العلامة أبي محمد عبد اللَّه ابن الإمام العلم الشّريف التّلمساني، والإمام عالم المغرب سعيد العقباني[8].

1-الديباج، ابن فرحون، 394/1.

2- ثبت أبي جعفر الوادي أشي، أبو جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، ص265.

3- برنامج المجاري، المجاري، ص131.

4- شجرة النّور، بن مخلوف، 301/1.

5- برنامج المجاري، المجاري، ص131.

6-نيل الابتهاج ، أحمد بابا التّنبكتي، 411/1.

7-رحلة القلصادي ، القلصادي، ص106.

8-نيل الابتهاج ، أحمد بابا التّنبكتي، 505/1 وانظر ترجمته في الدّيباج، ابن فرحون، 290/2.

3/ **إبراهيم بن محمَّد المصمودي التّلمساني**: الشيخ الإمام العلامة الفقيه المحقق الفهّامة، رئيس الصّلحاء والزّهاد والأئمة العباد صاحب الكرامات المشهورة، والدّيانة المأثورة الولي المجاب الدعوة، أخذ عن أعلام كالشّيخ موسى العبدوسي، والآبلي، وسعيد العقباني[1]، قرأ كثيرًا على الإمام شريف العلماء، أبي عبد اللّه الشّريف التّلمساني، ثم انتقل بعد وفاته للمدرسة التّاشفينية فقرأ بها على العلامة خاتمة قضاة العدل بتلمسان سعيد العقباني[2].

4/ **أبو عبد الله محمَّد بن إبراهيم التّلمساني**: شُهِّر بابن الإمام من بيت علم وجلالة وفضل وعدالة، الإمام العلامة الفهامة المتفنن في العلوم الحامل راية المنثور والمنظوم، أخذ عن سعيد العقباني وغيره، وعنه الحافظ التّنسي والقلصادي وابن مرزوق الكفيف والتّقي اليمني، وغيرهم من أهل المشرق والمغرب[3]، وله حكاية عن شيخه العقباني سيأتي ذكرها.

5/ **ابن زاغو التّلمساني**: العالم العامل الولي الصّالح الشّيخ الكامل المؤلف المحقق العمدة الفاضل، أخذ عن سعيد العقباني[4]، وأبي يحيى الشّريف التّلمساني وجماعة، وعنه جماعة منهم أبو زكرياء يحيى المازوني والحافظ التّنسي وابن زكري وأبو الحسن القلصادي وذكره في رحلته وأثنى عليه كثيرا [5].

6/ **عبد الرحمن ابن الإمام محمَّد الشّريف التّلمساني**: المعروف بأبي يحيى، الإمام العلامة العمدة الفهّامة شريف العلماء وعالم الشرفاء وخاتمة المفسرين والفضلاء، كان آية من آيات الله في القيام بتحقيق العلوم مع الإتقان حاملاً لواء المعارف والعرفان، أخذ عن سعيد العقباني[6] وعن أبيه وبه تفقه[7]، وأخذ عن أخيه علومًا جمة وقرأ عليه كتبًا كثيرة، وقرأ وقرأ على العقباني أَصْلَيْ ابن الحاجب وإيضاح الفارسي وجُمل الخونجي[8]، وهذه الكتب متنوعة المعارف، فهي تتوزع على على نحو وصرف ومنطق وأصول، وهذا انعكاس للمعارف التي تشبع بها العقباني طول مسيرته العلمية الحافلة.

7/ **أبو عبد الله المجاري الأندلسي**: قرأ عليه بموضع إقرائه بالمدرسة[9] بلفظه، من أول كتاب أبي عمرو بن الحاجب في الأصول إلى قوله: للمتقدمين باعتبار الوسط أربعة أشكال، ومن القياس منه نحو الرّبع، ومن فرائض الحوفي جملة كبيرة

1- قال الحفناوي في ترجمة العقباني: أخذ عنه الأئمة، كالإمام العارف بالله إبراهيم المصمودي. تعريف الخلف برجال السّلف، أبي القاسم الحفناوي الدّيسي، ص 154، مطبعة بيير فونتانة الشّرقية، الجزائر، 1906م.

2-نيل الابتهاج ، أحمد بابا التّنبكتي، 55/1, وانظر ترجمته في شجرة النور، ابن مخلوف، 358/1.

3- شجرة النّور، ابن مخلوف، 366/1، وانظر ترجمته في: البستان، ابن أبي مريم، ص320، نيل الابتهاج ، أحمد بابا التّنبكتي، 521/1 .

4- قال التّنبكتي في ترجمته: أخذ عن إمام الغرب أبي عثمان سعيد العقباني. نيل الابتهاج ، أحمد بابا التّنبكتي، 118/1.

5-رحلة القلصادي ، القلصادي، ص107، وانظر ترجمته في: شجرة النور، بن مخلوف، 366/1، وفي معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص156، مؤسسة نويهض الثّقافية للتّأليف والتّرجمة والنّشر، بيروت – لبنان، الطّبعة: الثانية، 1400 هـ - 1980 م.

6- جاء في ترجمة العقباني في البستان: أخذ عنه جماعة من السادات ...، والإمام العارف أبي يحي الشّريف. البستان، ابن أبي مريم، ص107.

7- شجرة النّور، ابن مخلوف، 366/1، وانظر ترجمته في البستان، ابن أبي مريم، ص320، نيل الابتهاج ، أحمد بابا التّنبكتي، 521/1

8-نيل الابتهاج ، أحمد بابا التّنبكتي، 253/1.

9- قلت: لعله يقصد المدرسة التاشفينية، التي درّس فيها أبو إسحاق المصمودي، عند العقباني أيضا، انظر: نيل الابتهاج ، أحمد بابا التّنبكتي، 55/1.

من أَوَلِه، وسمع منه بعض دول من الوصايا منه بقراءة غيره وحظاً وافراً من تفسير القرآن ومن مختصر البراذعي كل ذلك قراءة تفقه[1].

8/ **محمد بن ميمون الجزائري المعروف بابن الفخار**: لكون جدّه كان يبيع ذلك، نزيل مصر، أصله من الأندلس، ومولده بالجزائر من بلاد المغرب، قرأ بها القرآن والفقه، ثم انتقل إلى تلمسان، وأقام بها، وثابر على قراءة العلم على جماعة من شيوخها، كقاضي الجماعة بها، أبي عثمان سعيد العقباني مدة[2].

ولم يكن للإمام العقباني كبير عناية بالأسانيد والإجازات كما نبَّه إليه المجاري[3]، وإن كان أشرنا سابقا إلى روايته عن السّلطان أبي عنان المريني، ولكن نذكر فيما يلي جماعة ممّن أجازهم:

1/ **عبد اللَّه بن أحمد بن يوسف، عُرِف بالعشّاب، الغساني، الأندلسي**: نزيل درعة، كان من أهل العلم يعتني بجمع الكتب، قيَّد بخطه كثيرًا مع حسن خطه رحل وحجَّ ولقي أعلامًا وأجازوه، كابن عرفة وسعيد العقباني، وابن خلدون والعز بن جماعة، وكتبوا خطوطهم له[4].

2/ **أبو عبد الله محمَّد بن إبراهيم بن عقاب التّونسي**: قاضي الجماعة بها وإمامها وخطيبها بجامعها الأعظم الفقيه العلامة المحصل المحقق الحافظ الفهامة ذو الفنون والتحقيقات البارعة، أخذ عن ابن عرفة وانتفع به وأجازه الإمام سعيد العقباني وغيره[5].

3/ **أبو عبد الله المجاري**: فممَّن أجازه الإمام العقباني إجازة عامة بجميع مروياته، أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن عبد الواحد المجاري، الأندلسي، كما أخبر بذلك عن نفسه قائلا: وأجازني –رحمه الله– إجازة عامة بشرطها وأباح لي أن أحدث عنه بما ذكر وبجميع ما رواه وقيّده كتب خط يده[6].

ومع اشتغاله رحمه الله بالإمامة[7]، والقضاء والإفتاء والتّدريس إلا أنّ العناوين التي وصلتنا عن مؤلفات الإمام العقباني تشهد على تبحره في شتّى العلوم والمعارف وفيما يلي عرض موجز لأهم مؤلفاته والتعريف بها ومعرفة مكان تأليفها:

1/ **شرح الحوفية**: ومتن الحوفية هو مختصر في علم الفرائض، للشيخ أحمد أبو القاسم الحوفي، قال الحفناوي عن العقباني: وألّف شرح الحوفية لا نظير له[1]، وهذا دليل أنّه شرحٌ جليل، عظيمُ المنفعة.

1- برنامج المجاري، ص129.

2- العقد الثّمين في تاريخ البلد الأمين، تقي الدّين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي، 384/2، ت: محمد عبد القادر عطا، النّاشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطّبعة: الأولى، 1998 م.

3- قال المجاري: والذي ظهر لي منه أنه لم يكن له عناية بالرواية، برنامج المجاري، ص129.

4-نيل الابتهاج ، أحمد بابا التّنبكتي، 231/1.

5- شجرة النّور، بن مخلوف، 366/1، وانظر ترجمته في نيل الابتهاج ، أحمد بابا التّنبكتي، 527/1.

6- برنامج المجاري، ص130.

7- قال ابن خلدون في ترجمة العقباني: وهو الآن خطيب الجامع الأعظم بتلمسان. بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، يحي بن خلدون، 138/1، ت: بوزياني الدّراجي، دار الأمل للدّراسات، الجزائر، 2007م.

2/ **شرح الجُمل**: ومتن الجُمل هو مختصر في علم المنطق، للشّيخ أفضل الدّين الخونجي، قال ابن القاضي في ترجمة العقباني: وله تواليف منها: شرح الحوفي في الفرائض، وشرح جمل الخونجي في المنطق[2].

3/ **شرح مختصر ابن الحاجب**: في علم الأصول، وإليه أشار الإمام العقباني في نهاية كتابه الوسيلة بقوله: وقد حققْنَا ذلك في شرح ابن الحاجب الأصلي[3]، فقوله: حققْنَا، يدل على تمكنه في علم الأصول وإحاطته به، وأنّه أتى في شرحه بفوائد نفيسة، وإلى هذا أشار التّنبكتي، في قوله: ألَّف شرح الحوفية ولم يؤلف عليها مثله، ...، وشرحًا جليلًا على ابن الحاجب الأصلي[4].

وله أيضا مؤلفات متفرقة في مختلف العلوم العقلية، والشّرعية، كشرح كتاب تلخيص أعمال الحساب لأبي العباس بن البناء المراكشي وقصيدة ابن ياسمين في الجبر والمقابلة، وقصيدة البردة، وله أيضا تفسير سورة الأنعام والفتح أتى فيه بفوائد جليلة[5]، وكانت له مناظرات مع أحد أقرانه وهو الإمام القبّاب[6]، وبسببه ألَّف كتابه لباب اللّباب، قال التّنبكتي في ترجمة القبّاب: ووقع بينه وبين الإمام سعيد العقباني مناظرة بل مناظرات ومراجعات في مسائل جمعها العقباني وسماها: لب اللّباب في مناظرة القبّاب[7]، وهذا يشير بشكل واضح إلى قوة العقباني في المناظرة، التي من أهم مقوماتها، سرعة استحضار المسائل، والتّركيب بينها، وهذا الأمر لا يستطيعه إلا من كان يتميّز بذكاء حاد، وسرعة بديهة.

أما في أصول الدّين وعلم الكلام فقد صنَّف فيه كتابان، بحسب ما بلغه جهدي في البحث والتّنقيب:

الأول/ شرح العقيدة البرهانية: وهو شرح على عقيدة الإمام أبي عمرو عثمان السّلالجي التي اختصرها من كتاب الإرشاد لإمام الحرمين[8]، قال في مقدمته: اعلم أن الذي يُنظر فيه في علم الكلام ينحصر في أربعة فصول: في وجود الله، وفيما يستحيل في حقه، وفيما يجب له، وفيما يجوز أن يثبت ويجوز أن لا يثبت له، ولابدّ من تقديم مقدمة يتبين فيها اصطلاح أهل هذا العلم[9]، فبدأ في مقدمة الكتاب بحصر مسائل علم العقيدة، وقال في وصف كتابه: وضعنا هذا

1-تعريف الخلف، أبي القاسم الحفناوي، ص 154، وانظر: البستان، ابن أبي مريم، ص106.

2-درة الحجال في أسماء الرّجال، أبي العباس أحمد بن محمد المكناسي، الشهير ب: ابن القاضي،299/1، ت: محمد الأحمدي أبو النّور، دار التّراث، القاهرة.

3-الوسيلة بذات الله وصفاته، أبي عثمان سعيد بن محمد العقباني، ص134، ت: نزار حمادي، مؤسسة المعارف، بيروت-لبنان،2008م.

4-نيل الابتهاج ، أحمد بابا التّنبكتي، 190/1.

5- شجرة النّور، ابن مخلوف، 360/1، وانظر: نيل الابتهاج ، أحمد بابا التّنبكتي، 190/1.

6- أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن، الشّهير بالقبّاب، الإمام الحافظ العلامة الصالح الزّاهد، أحد محققي المتأخرين من الحفاظ المشهورين بالدّين والصّلاح والتّقدم في العلوم، تولى الفتيا بفاس، وله فتاوى مشهورة، وانظر ترجمته في: شجرة النّور، ابن مخلوف، 338/1، نيل الابتهاج ، أحمد بابا التّنبكتي، 102/1.

7-نيل الابتهاج ، أحمد بابا التّنبكتي، 104/1.

8-انظر دراسة الأستاذ جمال علال البختي المسمّاة: عثمان السّلالجي ومذهبيته الأشعرية، وهي من منشورات وزارة الأوقاف المغربية، 2005م.

9- شرح العقيدة البرهانية، أبي عثمان سعيد بن محمد العقباني، ص45، ت: نزار حمادي، النّاشر: مؤسسة المعارف، بيروت-لبنان، الطّبعة: الأولى، 2008م.

الكتاب لا للمنتهين، فما تراه في عبارة هذا الكتاب من رطوبة فسببه قصد التّقريب للأفهام[1]، وهذا الكلام يقصد به أنّ أنّ سهولة عبارة الكتاب، دليل أنّه ليس موجها لطلاب الدّراسات العليا، والمنتهين في هذا العلم، بل غرضه تقريب مسائل العقيدة.

الثاني/ الوسيلة بذات الله وصفاته: وهو مختصر في علم أصول الدّين، تطرق فيه العقباني إلى جُل مباحث هذا العلم، على نحو مختصر، على طريقة أهل السّنة الأشاعرة، وقد ذكر في مقدمة الكتاب أنّه صنّفه للحاجب أبي العباس القبائلي، فقال: ألّفت برسمه هذا التّأليف الغريب الذي يغنيه النّظر فيه عن تعليم المعلمين، وينتظم به في سلك العلماء العارفين، ويصير بذلك في درجة المجتهدين[2]، وقد ألّف كتاب الوسيلة عند استقراره بتلمسان، أمّا العقيدة البرهانية فقد شرحها خلال مدة إقامته ببجاية[3].

من خلال كل ما سبق نتبيّن سعة اطلاع الإمام العقباني وتميّزه بين أقرانه وتضلّعه في العديد من العلوم، وبخاصة علم الكلام، وأصول الدّين، ومصنفاته خير شاهد على ذلك.

ثانيا: منهج الإمـام العقباني في العـقيـدة:

1/ موقع العقباني في الخريطة العقدية المغربية ومنهجه في التأليف

إنّ أساطين الكلام في زمن الإبداع المشرقي كان لهم عميق الأثر في تشكيل الفكر الكلامي المغربي، لكن تعامل المغاربة عموما، وبالخصوص علماء المغرب الأوسط، مع النّصوص الكلامية المشرقية، شرحاً وتعليقاً واختصاراً، لم يكن تقليداً ولا تَكراراً، فجاءت شروحهم تنقيحاً، وتخليصاً من غير المفيد، وتهذيباً وتيسيراً، فتذليل المعارف كانت هي الميزة الأساسية في كتابات العقباني.

ومن أهمّ الكتب التي كان لنصوصها عميق الأثر، كتاب الإرشاد لأبي المعالي الجويني، فقد تأثر به متكلموا الجزائر خصوصا والغرب الإسلامي عموما، واعتبروه المدخل إلى علم الاعتقاد[4]، واتخذه النّاس إماما لعقائدهم، بل كانت له عليهم سلطة جعلت منه في نظرهم محور المعتقد الأشعري وكان يُدَرس في الصّفوف العالية[5]، وبذلك تعاملوا معه نظماً واختصاراً وشرحاً بفهمٍ وبصيرة، فقد جاء في وصف اللّخمي، المعروف بابن الإشبيلي، بأنّه: كان له بصر بكتاب

1- شرح العقيدة البرهانية، العقباني، ص48.

2- الوسيلة، العقباني، ص32.

3- قال الونشريسي: وبسَلا شرح كتاب الحوفي، وببجاية شرح العقيدة البرهانية، وبقية تواليفه ألفها بتلمسان. وفيات الونشريسي، ص81.

4- الرّوض العطر الأنفاس بأخبار الصّالحين من أهل فاس، محمد بن عيشون الشّراط، 193/1، ت: زهراء النظام، منشورات كلية الآداب، المغرب، 1997م.

5- ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، محمد المنوني، ص310، منشورات كلية الآداب، المغرب، الطّبعة: الثّالثة، 200م.

الإرشاد[1]، وبقي أثره إلى زمن العقباني، فقد جاء في ترجمة ابن عباد أنّه قرأ كتاب الإرشاد على الإمام الآبلي شيخ العقباني في العقيدة والكلام[2].

وجاءت العقيدة البرهانية، لأبي عمرو عثمان السّلالجي، أفضل تلك المختصرات لكتاب الإرشاد، فظلت لها الصدارة على السّاحة المغربية، مرحلة تاريخية طويلة، حفظا ونظما وتدريسا، فقد اتصف اختصاره هذا بالإبداع، حيث استطاع السّلالجي، من خلالها أن يؤسس مدرسة نظرية، يحق لنا أن نسميها مدرسة الإرشاد السّلالجية، فقد جاء في وصفه بأنّه كانت له خبرة وبصيرة بكتاب الإرشاد، وأنّه إمام أهل المغرب في الاعتقاد، والأوحد في علم الكلام[3]، فأنتجت مدرسة السّلالجي[4]، جملة من علماء المذهب بفاس وبالغرب الإسلامي عموما، وقد شُرِحت البرهانية بشروح كثيرة[5]، لشرح العقباني فيها مرتبة رفيعة.

ممّا سبق يتوضح موقع العقباني في الخريطة العقدية المغربية والخريطة الكلامية عموما، فقد جاء شرحه للبرهانية، ليعطي نفسا جديدا متميزا، فقد حاول في شرحه هذا تقريب مباحث البرهانية للمبتدئين من طلبة العلوم الشرعية، فابتدأه ببيان مسائل علم الكلام[6]، ثم مقدمة شرح فيها مصطلحات هذا العلم[7]، واقتصر على ذكر أصول الاستدلالات على العقائد الدّينية الإسلامية فلم يشرح الفصول المتعلقة بالإمامة والمفاضلة بين الصحابة والتّوبة ممّا لم يعتبره من الأصول العقدية[8].

أمّا كتابه الآخر في أصول الدّين الموسوم بـ: الوسيلة بذات الله وصفاته، فقد ابتدأه بتبيين فضل وشرف علم الكلام، ثمّ أردفه بمقدمات أكثر توسعا، لأنّه لم يقتصر ببيان مصطلحات الفن، بل أضاف إليها أقسام الحكم العقلي، وعرض أيضا تقسيم العلم الحادث إلى تصور وتصديق وبيان كل منهما، ثمّ أوْجه الاستدلال، ثمّ تعريف الخبر وحقيقة الدّعوى والمقَدَم والمطلوب، فجاءت خمسة مقدمات، ثم شرع في الفصل الذي يليه مُسَّميا إياه المقصد الأعظم وهو وجود الإله -جل وعز- ثمّ صفاته -عز وجل- وأحكامها، وعرض بعدها النّبوات والمعجزات، ثم حكم مرتكب الكبيرة وحقيقة التّوبة، فعذاب القبر والميزان والحوض والشّفاعة، ليختتم كتابه بحقيقة الإيمان والإسلام والخلاف مع المعتزلة في ذلك.

1- الرّوض العطر الأنفاس ، الشراط، 194/1.

2-نيل الابتهاج ، أحمد بابا التّنبكتي، ص474.

3- التّشوف إلى رجال التّصوف ، ابن الزّيات، 194/1، ت: أحمد التّوفيق، منشورات كلية الآداب، المغرب، الطّبعة: الأولى، 1984م.

4- لمعرفة المزيد حول المدرسة السلالجية انظر: عثمان السّلالجي ومذهبيته الأشعرية، جمال علال البختي.

5- راجع ثبت شروح العقيدة البرهانية في كتاب: تطور المذهب الأشعري بالغرب الإسلامي، يوسف احنانة، النّاشر: وزارة الأوقاف المغربية، الطّبعة: الأولى، 2003م.

6- قال العقباني بعد أن ذكر مسائل علم الكلام: وجميع مسائل علم الكلام إلى هذا ترجع، وعنه يتفرع منها ما يتفرع. انظر: شرح العقيدة البرهانية، العقباني،ص45.

7- قال العقباني: ولابد من تقديم مقدمة يتبين فيها اصطلاح أهل هذا العلم. انظر: شرح العقيدة البرهانية، العقباني،ص45.

8- قال العقباني: الكلام على التّوبة من مسائل الفروع، وليس ممّا يرجع إلى الاعتقادات. انظر: شرح العقيدة البرهانية، العقباني،ص98.

لم يكن تميُّز العقباني في التّصنيف فقط[1] بل كان أيضا متميزا في مادته الكلامية لأنّ مقصوده أن يصبح النّاظر في مصَنَفه في درجة المجتهدين والمقَلِّدِين، ودعوة العقباني للاجتهاد تقودنا للبحث عن اختياراته العقدية، وما تميز به من آراء كلامية، ونضرب لذلك مثالا من الإلهيات وبعده مثالا من النّبوات.

أما في باب الإلهيات فيعقد العقباني فرعا في تعلق قدرة الله بما عُلِم عدم وقوعه، لأنّ الشّيء قد يكون ممكنا في نفسه، فيعرِضُ له أمر يُصَيّره محالا، كإيمان أبي جهل مثلا، ممكن في نفسه، لكن لما تعلق علم الله بعدم وقوعه صار من هذا الوجه محالا، فهل تتعلق به القدرة أو لا؟، لقد حاول الغزالي التوفيق بين القولين، لكنّ العقباني حسم موقفه في هاته المسألة بقوله: والحق عندي أنّ تعلق العلم بعدم وقوعه لا يخرجه عن أن تتعلق القدرة به[2].

وفي باب النّبوات في سياق ما كتبه عن المعجزة وشروطها، عقد فرعا لبيان وجه إعجاز القرآن الكريم، فقال: وقد اختلف في وجه إعجازه، فقيل: لأنّه بلغ في الفصاحة إلى الغاية الخارجة عن قدرة البشر عادة، وقيل: بل هو من جنس المقدور، إلا أنّهم عجزوا عنه[3]. بعد أن استعرض العقباني أقوال العلماء في المسألة ومذاهبهم فيها عرض اختياره بقوله: والحق عندي أن حمل الإعجاز فيه على الوجه الأول هو الحق[4].

ومن أهمّ سِمات مادته الكلامية تميزها بالأسلوب الجدلي وهو ما كان شائعا عند المتكلمين فلا يكاد يخلو دليل من أدلتهم من أقسام متعددة، واحتمالات متوالية، كقولهم : لو صح ما قلتموه فإمّا كذا وإمّا كذا، فلا يخلوا الأمر إمّا أن يكون كذا وكذا، فكانت عباراته مشابهة لعباراتهم كقوله: فإن قلتم قلنا، وإن قيل فالجواب أن نقول، وإن قيل قلنا[5].

2/ مسالك الاستدلال عند الإمام العقباني

يعتبر العقل أهمّ مسلك من المسالك التي يعتمد عليها المتكلمون في الاستدلال والبرهنة على قضايا العقيدة، وذلك لوجوب النّظر عندهم، وقد استعمل المتكلمون عدّة صور من الاستدلال الكلامي لصياغة معارفهم وأفكارهم، كالاستقراء وانتفاء المدلول لانتفاء دليله، وأساليب الجدل المختلفة، لكن تبقى أهم صورة من صور الاستدلال هي:

قياس الغائب على الشاهد: حيث يكون طريق إثبات الأحكام الاعتقادية المتعلقة بالله وصفاته وأفعاله، بناء على وجود نظائر لها في الواقع المشاهد[6].

ويستعمل العقباني هذه الصورة في الاستدلال في سياق إثبات صفة الوحدانية لله، وهو يذكر برهان نفي الشّريك عن الله، فيقول: واعلم أنّ هذا البرهان هو المشار إليه في قوله تعالى:{ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء :22]، أي:

1- قال العقباني: ألّفت برسمه هذا التّأليف الغريب. انظر: الوسيلة، العقباني،ص32.

2- الوسيلة، العقباني،ص79، راجع تبريره لاختياره في نفس الصفحة.

3- انظر: شرح العقيدة البرهانية، العقباني،ص91.

4- راجع تبريره لاختياره في شرح العقيدة البرهانية، العقباني،ص91.

5- راجع عباراته في الوسيلة، العقباني،ص49-50-51 ، وشرح العقيدة البرهانية، العقباني،ص91.

6- المدخل إلى دراسة علم الكلام، حسن محمود الشّافعي، ص163، النّاشر: إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي- باكستان، 2000م.

لفسدت السّماوات والأرض، ووجه التّوفيق بين الآية وبين هذا البرهان أن يقال: لو تعددت الآلهة لاختلفت إرادتهم في تدبير السماوات والأرض، ولو اختلفت إرادتهم في تدبيرهما لفسدتا، أمّا بيان أنّهم لو تعددوا لاختلفت إرادتهم فبقياس الغائب على الشّاهد، إذ من المعلوم في الشّاهد، أنّه لا يجتمع ملِكان في قُطْر كلٌ مستقل بالمِلْك إلّا اختلفا وتناكرا، حتى أنّك تراهم يقتل أحدهم أباه أو ابنه[1].

ويستعمله مرة أخرى أيضا العقباني في سياق إثباته لصفة العلم فيقول: وأمّا أنّ كل عالِم فله علم، فبالقياس على الشّاهد، وذلك أن كل عالِم في الشّاهد له علم، فوجب أن يكون في الغائب كذلك[2].

وقياس الغائب على الشّاهد مأخوذ من أصول الفقه ولكنّ المتكلمين أدخلوا عليه تعديلا، يقربه إلى طبيعة البحوث الكلامية وهو أن يتوفر بين الشّاهد والغائب جامع مشترك من حيث الحقائق أو الأدلة أو الشّروط أو العلل، وفي هذا يحكي الآمدي: اتفاق الأصحاب على إلحاق الغائب بالشّاهد، بجامع الحد والعلة والشّرط والدلالة[3].

وعلى هذا المنهج سار العقباني في الاستدلال على ثبوت الصّفات الأزلية، فيقرر جامعين مشتركين يسمحان له باستعمال قياس الغائب على الشّاهد وهما: العلة والحقيقة، فيقول عن جامع العلة: أمّا العلة فهو أن علة كون زيد مثلا عالما هو ثبوت العلم به، والمعلول متى وُجد دلَّ على وجود علته، فإذا ثبت أنّه عالم، ثبت أن له علما[4]، ويقول في بيان جامع الحقيقة: وأمّا الحقيقة، فلأنّ حقيقة العالِم في الشاهد: هو من ثبت له علم[5].

وبعد أن ضرب لنا مثالا بصفة العِلم، يُقرر أنّ هذا المسلك في الاستدلال يجري في باقي الصّفات، بقوله: وإذا فهمت هذا الدّليل في العِلم، فكذلك تُجريه في سائر الصفات[6].

وهذا يبيّن اطلاعه ومعرفته بمسالك الاستدلال التي انتهجها المتكلمون الذين سبقوه، وكذلك توظيفه لهاته المسالك في تقرير المعارف الإيمانية.

ولا يكتفي العقباني باستعمال قياس الغائب على الشّاهد في المعارف الإلهية بل يستعمله أيضا في باب النّبوات وذلك في سياق إثبات نبوته -صلى الله عليه وسلم- فيقول: فقد ثبت أنّه عليه السّلام ادعى الرّسالة، واستدلّ عليها بأنّه أتى بالخارق، وعجز النّاس عن معارضته، وأمّا من اجتمعت له هذه الأمور فهو رسول، فقد بينّا ذلك في مثال ذلك الملك

1- الوسيلة، العقباني، ص63.

2- شرح العقيدة البرهانية، العقباني،ص78.

3- أبكار الأفكار في أصول الدّين، سيف الدّين الآمدي، 212/1، ت: أحمد محمد المهدي، النّاشر: دار الكتب والوثائق القومية القاهرة، الطّبعة: الثّانية، 1424هـ - 2004م.

4- شرح العقيدة البرهانية، العقباني، ص: 78.

5- المصدر السّابق، ص: 78.

6- المصدر السّابق، ص: 78.

الذي زعم واحد من رعيته أنّه قدمه على سائر الرّعية، واستشهد على ذلك بأنّه يطلب من الملك أن يقوم ويقعد على خلاف عادته، فيوافقه الملك على ذلك، فقد ثبت رسالته عليه السّلام[1].

وهناك صيغة استدلالية أخرى استعملها المتكلمون بكثرة، وهي: السّبر والتّقسيم، وتعريفه: أن نحصر الأمر في قسمين، ثم يبطل أحدهما، فيلزم منه ثبوت الثّاني، كقولنا: العالم إما حادث وإما قديم، ومحال أن يكون قديماً فيلزم منه لا محالة أن يكون حادثاً أنه حادث وهذا اللّازم هو مطلوبنا[2].

استعمل الإمام العقباني هذه الطريقة في الاستدلال بكثرة ومن ذلك قوله: والحق أن العالَم كله حادث، وبرهانه أن نقول: العالم كله إما جوهر وإما عَرَض، وكل جوهر حادث، وكل عرض حادث، فالعالم كله حادث[3].

وقال في موضع آخر: وأمّا بيان أنّ كل ما يمكن عدمه بعد وجوده لا يكون قديما، فلأنّ القديم إمّا أن وجوده واجبا غير محتاج إلى سبب، وإمّا أن يكون وجوده ممكنا، فإن كان واجبا لم يمكن انعدامه، وإن كان ممكنا فلابد لوجوده من سبب، فإنّ الممكن لا يوجد إلا لسبب، ثم ذلك السّبب إمّا أن يكون واجبا أو ممكنا، وباطل أن يكون ممكنا لأنه إذا كان ممكنا يحتاج وجوده أيضا إلى سبب ويتسلسل، فلابد من الانتهاء إلى سبب واجب[4].

ويتبيّن لنا ممّا سبق أنّ المسلك العقلي في الاستدلال كان حاضرا بقوة في منهج العقباني العقدي بمختلف طرق الاستدلال الكلامي.

أما المسلك الشرعي في الاستدلال فواضح تمسكه بظواهر الأدلة السمعية، في بعض مسائل الاعتقاد، ومن ذلك ما ذكره عند الكلام عن الاختلاف في إثبات الإدراك صفة لله، حيث قال: إلّا أنّ الشّرع لم يَرِد إلا بإطلاق السّمع والبصر، فلم يُتجاسر على إطلاق هذه الإدراكات من الشّم والذّوق واللّمس[5]، وقال أيضا في سياق الكلام عن كيفية إعادة الأجسام مرة ثانية بعد فنائها: إنّ أئمتنا اختلفوا في ذلك، ولا معتصم فيه إلا نصوص الشّريعة، ولا شك أنّ الأمر فيه مُعتصم[6].

وبين العقل والنّقل يمضي العقباني في تقرير العقائد الإيمانية والبرهنة عليها، وعرض مسائلها وتقريبها بأبسط صورة ممكنة.

3/ طبيعة المعرفة العقدية عند الإمام العقباني

1- الوسيلة، العقباني، ص107-108.

2- الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطّوسي، ص18، النّاشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطّبعة: الأولى، 1424 هـ - 2004 م.

3- الوسيلة، العقباني،ص46.

4- المصدر السابق،ص53، راجع أيضا: شرح العقيدة البرهانية، العقباني، ص46.

5- شرح العقيدة البرهانية، العقباني،ص77.

6- الوسيلة، العقباني،ص112.

لم يخض المتكلمون في الطبيعيات بقصد التّفلسف أو النّظر العقلي المجرد، بغية الوصول إلى تفسير طبيعي للكون على غرار ما يفعله الفلاسفة، وإنّما كان خوضهم في الطّبيعيات لغرض ديني، وهو إثبات أنّ كل ما في العالَم من: الجواهر والأعراض، مُحْدَث مخلوق، ومن ثم فلابد له من مُحدث، أي من خالق هو الله تعالى، فيكون هذا دليلا على وجود الله، معتمدا على العقل، بجانب الأدلة المعتمدة على النّقل في إثبات الخلق والخالق.

ومن هذا المنطلق تناول العقباني الكثير من المسائل الطبيعية، ليس بصورة موسعة، وذلك لأنّ طبيعة كتابيه المختصرة لا تسمح بذلك، فقد جعل هذه المباحث بابا رئيسيا للدّخول في الإلهيات، فمعرفة الله بصفاته تستلزم معرفة الطبيعة أي: العالَم، فتكلم عن الجواهر والأعراض، والحركة والسّكون، والاجتماع والافتراق، وهذه الأربعة هي: الأكوان الأربعة، وهي كلها أعراض، والظّهور والكمون[1]، ثم بعد حديثه عن الجواهر والأجسام والأعراض التي هي مكونات العالَم الطبيعي، بدأ بصياغة أدلة وجود الله ومن تلك الأدلة: **دليل الأعراض،** أو ما يسمى بدليل الدّعاوى الأربعة، لأنّه مبني على دعاوى أربعة تحتاج كل منها إلى إثبات فيثبت العقباني الأعراض أولا، ثمّ يثبت حدوثها، ثمّ يثبت أنّها لا تنفك عن الأجسام، ثمّ يرتب عليها حدوث الأجسام، يقول العقباني: وبيان أنّ الجواهر والأجسام حادثة أنّها لا تخلوا عن الحوادث، وبيان أنّها لا تخلوا عن الحوادث أنّها لا تخلو عن الحركة والسكون، وهما حادثان، وبيان أن كل ما يخلوا عن الحوادث فهو حادث أنه لو لم يكن حادثا لكان قديما، ولو كان قديما لكان وجوده سابقا على وجود الحوادث، إذ كل قديم لابد أن يكون سابقا على الحوادث كلها، وإذا كان سابقا عليها فقد كان خاليا عنها حيث سبقها بالوجود، فكل قديم فهو يخلو عن الحوادث، وكل ما لا يخلوا عن الحوادث لا يكون قديما، فكل ما لا يخلوا عن الحوادث فهو حادث[2].

ومن تلك الأدلة أيضا: **بطلان الرّجحان بدون مرجح،** ومعنى ذلك أن يكون الشيء جاريا على نسق معين، ثمّ يتغير عن نسقه ويتحول عنه بدون مؤثر، فهذا من الأمور الواضحة البطلان، يقول العقباني: اعلم أنّا إذا رأينا شيئا وُجد بعد أن كان معدوما، فإنّا لا نتمارى -أي: لا نشك- أنّه ما أوجد نفسه، وإنما أوجده غيره ... فإذا نظر الإنسان أولا في نفسه، علِم أنّه ليس له في وجود نفسه كسب ولا حول ولا قوة... وكما يعلم هذا في نفسه وأسلافه فكذلك يعلمه في جميع العالم... فإذا تبيّن لنا أنّ العالم كان معدوما ثمّ وُجد، لم يبق معنا شك أنّ غيره أوجده وذلك الغير هو الله تعالى[3].

وبعد أن قرّر العقباني دليل الحدوث ودليل الإمكان، نجده ينتصر للأول، فيقول تعقيبا على ما أورده السّلالجي في البرهانية: واعلم أنّ هذا الاستدلال الذي سلك المصنف لا يتوقف إلا على إمكان العالم، ولا يتوقف على حدوثه، ولا شك أنّ الاستدلال بالحدوث كما قدمناه أتم من هذا[4]، وهذا من أبرز اختيارات العقباني العقدية، وهو ميله لدليل الحدوث.

1- راجع الصّفحات: 46-48-50-51، الوسيلة، والصّفحات:49-50 ، شرح العقيدة البرهانية.

2- الوسيلة، العقباني،ص54.

3- شرح العقيدة البرهانية، العقباني،ص47-48.

4- المصدر السابق،ص60.

وبعد أن أثبت العقباني وجود الله جاء الكلام عن صفات الله، وقد كان منهجيا في طرحها وبحثها فجعلها على قسمين: صفات ذات وصفات أفعال وجعل صفات الذات قسمين أيضا: سلبية ووجودية[1]، وهذا مخالف لصنيع الجويني في الإرشاد، حيث قال: اعلم أنّ صفاته سبحانه، منها نفسية، ومنها معنوية[2]، ولم يذكر الجويني مصطلح صفات الأفعال وإن كان تكلم عن أفعال الله[3].

وكان صنيعه متميزا أيضا عند سرده براهين الصفات، فقد اكتفى بدليل الكمال فقط عند إثبات كونه تعالى سميعا بصيرا متكلما[4]، مع أنّ المعتمد عند أهل السّنة الأشاعرة الدّليل السّمعي، قال الجويني: فإن قيل من أركان دليلكم استحالة اتصاف الباري تعالى بالآفات المضادة للسّمع والبصر، فما الدّليل على ذلك؟ قلنا: هذا مما كثر فيه كلام المتكلمين، ولا نرتضي مما ذكروه في هذا المدخل إلّا الالتجاء إلى السّمع[5]، وكذلك في رؤية الله اعتمد على دليل الوجود وحده في شرح البرهانية[6]، مع أنّ المعتمد عند أهل السّنة هو الاستدلال على إثبات رؤية الله بالظواهر السّمعية، وإن كان في الوسيلة أشار إلى الدّليل السّمعي في إثبات كونه تعالى سميعا بصيرا متكلما وكذلك في إثبات رؤية الله[7].

وإذا كان هذا صنيعه فما موقفه من الأدلة الشّرعية إذا، يوضح العقباني في هذا النّص موقفه من الأخبار أو الأدلة السّمعية عموما، فيقول: ثمّ أخباره[8] ثلاثة أنواع:

النّوع الأول: أن يقوم الدّليل العقلي أنّ ظاهرها حق، كقوله: {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ} [المائدة :73].

النّوع الثّاني: أن يقوم الدّليل العقلي أنّ ظاهرها ليس بصحيح، كقوله عليه السّلام: (خلق الله آدم على صورته) [9].

النّوع الثّالث: أن يبقى ظاهره محتمَلا لا يُعلم دليل على إمكانه، ولا على استحالته، وهو أحد ما قيل في الظّواهر الواردة برؤية البارئ جل وعلا.

فأما النّوع الأول فلا إشكال في اعتقاد الصّحة في ظاهره، وأمّا النّوع الثّاني فلا إشكال أن يُعتقد أن المراد منه خلاف ظاهره، وأما النّوع الثّالث فإنّه يجب أن يُعتقد صحة ظاهره كالنّوع الأول، ويكون لفظ الشّرع يقوم مقام الدّليل العقلي على صحة ظاهره[1].

1- الوسيلة، العقباني،ص58.

2- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، إمام الحرمين الجويني،ص35، ت: أحمد السّايح، النّاشر: مكتبة الثقافة الدينية، الطّبعة: الأولى، 2009م.

3- انظر: الإرشاد، الجويني،ص158.

4- انظر: شرح العقيدة البرهانية، العقباني،ص76.

5- الإرشاد، الجويني،ص74.

6- يقول العقباني مستعملا طريقة السّبر: الباري موجود، وكل موجود تمكن رؤيته، فالباري تمكن رؤيته. شرح العقيدة البرهانية، العقباني،ص84.

7- انظر: الوسيلة، العقباني،ص95وص69.

8- أي: الرّسول.

9- صحيح البخاري، رقم: 6227، صحيح مسلم، رقم:2841.

وعلى هاته الطريقة كان أئمة أهل السّنة كابن فورك، والبغدادي، والجويني، والغزالي الذي يقول: ما لا يعلم بالضرورة ينقسم إلى ما يعلم بدليل العقل دون الشّرع، وإلى ما يعلم بالشّرع دون العقل، وإلى ما يعلم بهما... ثم كلما ورد السّمع به ينظر، فإن كان العقل مجوزاً له وجب التّصديق به قطعاً إن كانت الأدلة السّمعية قاطعة في متنها ومستندها لا يتطرق إليها احتمال... وأمّا ما قضى العقل باستحالته فيجب فيه تأويل ما ورد السّمع به ولا يتصور أن يشمل السّمع على قاطع مخالف للمعقول، وظواهر أحاديث التّشبيه أكثرها غير صحيحة، والصّحيح منها ليس بقاطع بل هو قابل للتّأويل [2].

ممّا سبق يتبين بشكل واضح الطّبيعة المعرفية العقدية للعقباني من خلال اختياراته العقدية، وموقفه من الدّليل السّمعي، وانتصاره لبعض الأدلة العقلية على حساب الأخرى.

خـــاتمـــة:

توصلنا من خلال مطالب هذا البحث إلى مجموعة من النتائج نجملها فيما يلي:

1/ إنّ الموسوعية التي كان العقباني يتمتع بها هي نتيجة حتمية للنّبوغ الفكري والتّفوق الذي كان يتحلى به، هذا الأمر الذي جعله يبْرُز بين أقرانه، ولأجل ذلك سلَّمَ له العلماء زمام القضاء لأكثر من أربعين سنة، وقد ظهرت آثار تفوقه في أبنائه وأحفاده من بعده، فأصبحت عائلته من العائلات المرموقة في تلمسان، وتولوا كلهم القضاء من بعده.

2/ إنّ الإطار العام الذي حكم فِكْر العقباني لا يختلف كثيرا عن التّيار العام الذي كان يسود آنذاك وهو المدرسة الأشعرية الجوينية.

3/ إنّ العقيدة الصحيحة عند العقباني هي التي تبنى على الإقناع، الأمر الذي ينبهنا إلى قيمة العقل في المدرسة الأشعرية.

4/ لا يعني الاعتماد على العقل في الفكر الأشعري التّخلي عن الاهتداء بالشّرع، بل ما قامت الأشعرية إلا لتثور على العقل المتطرف، فكان العقباني وغيره من أعلام أهل السّنة نماذج لتجسيد التّكامل بين العقل والشرع.

5/ إنّ المتتبع والقارئ لفكر العقباني يجد نفسه أمام شخصية متسامحة ومرنة غير متعصبة، فلا تكاد تجد في كتبه الاتهام بالتبديع أو التّفسيق أو التّكفير، إلا في النّادر ممّا أجمعت الأمة على رميه بذلك.

وأخيرا نقول أن العقباني وغيره من أعلام الجزائر لم ينالوا حقهم من الدّراسة والبحث ما يستدعي اهتماما خاصا بهذه الشّخصية وغيرها من شخصيات الجزائر وإعادة بعث تراثهم وتحقيق مخطوطاتهم، وإقامة أيام دراسية وملتقيات فكرية حولهم.

المصادر والمراجع:

- مقدمة كتاب نهاية الأمل في شرح الجمل، ابن مرزوق الحفيد، مخطوط، رقم 517، دار الكتب الوطنية، تونس.

1- الوسيلة، العقباني،ص102-103، وراجع أيضا: شرح العقيدة البرهانية، العقباني،ص93.

2- الاقتصاد، الغزالي،ص115.

- أبكار الأفكار في أصول الدين، سيف الدين الآمدي، ت: أحمد محمد المهدي، النّاشر: دار الكتب والوثائق القومية القاهرة، الطّبعة: الثّانية، 1424هـ - 2004م.
- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، إمام الحرمين الجويني، ت: أحمد السّايح، النّاشر: مكتبة الثّقافة الدّينية، الطّبعة: الأولى 2009م.
- الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطّوسي، النّاشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطّبعة: الأولى، 1424 هـ - 2004 م.
- الإمام السّنوسي وعلم التّوحيد، جمال الدين بوقلي، النّاشر: المؤسسة الوطنية للكتب، الجزائر، 1985م.
- البستان في ذكر الأولياء والعلماء في تلمسان، أبي عبد الله محمد بن محمد الملقب بابن أبي مريم التلمساني، النّاشر: المطبعة الثعالبية، 1908م.
- التشوف إلى رجال التصوف ، ابن الزيات، ت: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، المغرب، الطّبعة: الأولى، 1984م.
- الدّيباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري، ت: محمد الأحمدي أبو النور، النّاشر: دار التّراث للطّبع والنّشر، القاهرة.
- الرّوض العطر الأنفاس بأخبار الصّالحين من أهل فاس، محمد بن عيشون الشّراط، ت: زهراء النّظام، منشورات كلية الآداب، المغرب، 1997م.
- العقد الثّمين في تاريخ البلد الأمين، تقي الدّين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي، ت: محمد عبد القادر عطا، النّاشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطّبعة: الأولى، 1998 م.
- المدخل إلى دراسة علم الكلام، حسن محمود الشّافعي، النّاشر: إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي- باكستان، 2000م.
- برنامج المجاري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن عبد الواحد المجاري الأندلسي، ت: محمد أبو الأجفان، النّاشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت/ لبنان، الطّبعة الأولى، 1982م/ 1400م.
- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، يحي بن خلدون، ت: بوزياني الدراجي، النّاشر: دار الأمل للدّراسات، الجزائر، 2007م.
- تطور المذهب الأشعري بالغرب الإسلامي، يوسف احنانة، النّاشر: وزارة الأوقاف المغربية، 2003م.
- تعريف الخلف برجال السّلف، أبي القاسم الحفناوي الدّيسي، النّاشر: مطبعة بيير فونتانة الشّرقية، الجزائر، 1906م.
- ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي أشي، أبو جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، ت:عبد الله العمراني، النّاشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت/ لبنان، الطّبعة: الطبعة الأولى، 1403هـ.

- درة الحجال في أسماء الرجال، أبي العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي، ت: محمد الأحمدي أبو النّور، النّاشر: دار التراث، القاهرة.
- رحلة القلصادي، أبي الحسن علي القلصادي الأندلسي، ت: محمد أبو الأجفان، النّاشر: الشّركة التّونسية للتّوزيع، تونس، 1978 م.
- شجرة النّور الزّكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف، ت: عبد المجيد خيالي، النّاشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطّبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م.
- شرح العقيدة البرهانية، أبي عثمان سعيد بن محمد العقباني، ت: نزار حمادي، النّاشر: مؤسسة المعارف، بيروت-لبنان،الطّبعة الأولى، 2008م.
- عثمان السّلالجي ومذهبيته الأشعرية، جمال علال البختي، النّاشر: وزارة الأوقاف المغربية، 2005م.
- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدّيباج، أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التّكروري التّنبكتي السوداني، أبو العباس، ت: محمد مطيع، النّاشر: وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلامية المغربية، 2000م.
- معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثّقافية للتّأليف والتّرجمة والنّشر، بيروت – لبنان، الطّبعة: الثّانية، 1400 هـ - 1980 م.
- نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التّكروري التّنبكتي السّوداني، أبو العباس، ت: عبد الحميد عبد الله الهرامة، النّاشر: دار الكاتب، طرابلس – ليبيا، الطّبعة: الثانية، 2000 م.
- وفيات الونشريسي، أحمد بن يحيى الونشريسي، ت: محمد بن يوسف القاضي ، النّاشر: شركة نوابغ الفكر.
- ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، محمد المنوني، منشورات كلية الآداب، المغرب، الطّبعة: الثّالثة، 2000م.